الفصل الدافئ تلاشى

لور غريت

عاد وليد حاملا معه لهانيا خلال حديثه على الهاتف دفء الحنين لوجوده ، مما جعلها تحسّ عبر كلماته ثقة به وبنفسها . وكان خوفها يبتعد عنها بخطى عملاق ، وغمرتها موجة من الحنان وهي تشعر في صوته حرارة انفاسه على وجهها .

وتذكرت القلق الذي كان يرفّ في عيني وليد وهما يتنقلان في شوارع المدينة ، ولكنها كانت تحزر ان شيئاً ما يشغل فكره ، وانه يحاول ان يباعد ما بينه وبين ذلك بالحديث ، ولكنه حتى منتصف الليل تقريباً لم يكشف لها عن سر قلقه .

وعندما ركنت الى جانبه ساعة كان يوصلها الى بيتها همس في اذنها : « لديّ مفاجأة لك » .

فتساءلت فيما بينها وبين نفسها : « تراه لماذا انتظر حتى نهاية الأمسية حتى يفضي اليّ بالنبأ ؟ »

انها تعرف الآن انه لم تكن له الشجاعة على تحمل اضطرابها ساعة تلقّي النبأ ، فخلال الليل سوف تجد الوقت الكافي لتفكر بالأمر وتتقبل الواقع .

لقد كانت هانيا تؤمّل ان ماضي وليد سوف يندثر في العدم ، وانها سيكون بوسعها ان تمضي نشوى بمباهج الواقع خلال معين الشقاء الذي لا ينضب ، وان الايام سوف تردّد بغير نهاية صدى الخطوات في صمت الليالي ، وان فرحها المبهور سوف يعيد عليها ذكريات ماضيه .

ودون حقد ولا دموع راحت يداها تصوّران ايماءات الحنان ، فالحياة الغافلة تجهل ضياعها .

ولقد كان بودّها لو ان الحقيقة تفتح عينيها وتباعد ما بينها وبين وظل ذهول العزلة ،

بينما تسجّل الساعة الحذرة ، رويداً رويداً ، الهالة السوداء حول عينيها ، هذه الهالة التي هي شاهد على التمزق القاتل الذي لقت بها فيه عواطف صداقتها المتضاربة وتوتر مشاعرها.

فالحقّ انه لم يعد بوسع هانيا ان تميز اين يبدأ هذيان هواها واين ينتهي . فهو هذيان جنوني . وهي لم تعد تدري حتى ما هو الفرق بين الفصول ، فبرد الشتاء وحرارة الصيف اختلطا بالنسبة اليها في احساس واحد .

لقد غدت الآن تحب أسى الامسيات التي تغمرها العتمة ، حيث تتمدد لحظات الزمن فارغة وتفرّ من الازل كأنها لا نهائية العصور .

ان ايام هانيا ووليد المقفرة ، وعذاب الاستفاقة من الحلم ، تبدو وكأنها توارت في البعيد ؛ فهي تتلاشى في الامسيات الطويلة حيث يهرب الوسن من العيون ويخلّف مكانه الشقـــاء .

وانها لتصارع الارق ، وتتوسل الى النوم عبثاً ان يلمّ بمآقيها ، علّه يأخذ بيدها نحو شواطىء العدم الرحيبة . فليالي الارق هذه شبيهة بالشواطىء الرملية القارسة التي تخادعها في رياح كانون ، وهي مثل الضيق الذي يمرح في المناجم المفرغة من معدنها الثمين ، دون ان يبقى لها سوى صدى الاصوات المخنوقة بين الواح اخشابها المتخلّعة منذ امد طويل .

وتحدث نفسها : « أوه ! لماذا لا يقتل الضجر اللقاءات الحقيقيـــة ، والجروح التي لا تندمل ؟ او لماذا لا يمنح القدسية لأخسّ اللحظات ، للشهوة العارمة في اوجها ؟ »

وتعود تتساءل : « أو من الضروري ان تتناوب نفسها لا أباليّة المدامع والفرح ، وان يتّسم بالقداسة الشكّ والايمان ؟ »

كلا ، فليس بوسعها ان تؤمن بقيمـــة الكلمات والنظرات والاشارات . وانّ بودّها لو حدّت الضجر بالرغاب التي تتبدل وبالشفاه التي تذوب حيث يجعل الحب مخادع الزوجية قفراء . وفي صمت غرفتها هتفت من اعماقها وقد برح بها الأسى : « أو حتمٌ علينا ان نعاود ابداً تفسير ما تعنيه كل اشارة يقوم بها الانسان ؟ »

اما الآن فان هانيا تعرف بأن الغرفة المقفلة والسرير المشعث يمكن ان تعرض على وليد مشاهد عن ماضيها ، ففي هاتين العينين المحرومتين حتى من الوسن لا يتلامح حتى وجودها .

فلقد اسدل وليد على وجهه قناع ماضيه ؛ وفي بعض الاحيـــان ، كان ركود موت

الحركات والشعور ، وشاطىء العدم حيث يتمازج النعاس وذكريات ماضيه ووجود هانيا، يعبران سوية في دنيا عينيه .

الكلمات والحركات شلاّء ؛ الحب يتولاه الذبول ، يتعب ؛ وعيونهما لا تبوح سوى بالتفاهات ؛ آليّة العادات تزوّجت لحظات اللقاء ، والمقابلات المفعمة بالمعنى والصور الجميلة غدت فارغة من محتواها العاطفي .

وهوذا الفجر يرين هادئاً ، وحكمه يدوم ابداً ، وسوف يقتنص ازلية العدم ، ذلك لان فصل العواطف والنظرات والعناق قد تلاشى بالنسبة لهانيا . وهي خائفة حتى من نفسها ومن وليد ومن كل ما يحيط بها ، فهي ترى برودة وليد من جديد وفي عينيه تمخر مئات الذكريات .

ولقد خيّل اليها بأنها تخمّن فيهما نوعاً من الرجاء الصامت ، كما لو ان الحقيقة تصارع « المفاجأة » وتودّ لو تنفيها من عالم الواقع وتلقي بها من دنيا الحاضر .

وهي منذ ذلك الحين تصارع امواج يمّ الواقع ولا تعرف كيف تتجاهله لتحظى بشيء من الراحة ، علّها تبحر من جديد في دنيا الحلم الوهمي . فلقد اعاد لها الواقع كل صلادة الوعي الذي تهبه الحياة للانسان البالغ ، هذا الوعي الذي يؤكد ان كل شيء باطل، وان بلاهة استسلامها كمحبة ، وايمانها المطلق بقدرتها وقوتها على تسيير كل ما في العالم الذي نشأ لها من حياتها مع وليد ، كل تلك جميعاً ليست سوى مهزلة رهيبة .

وهي تعرف الآن انها لم تكن اكثر من حجر ضائع في لعبة شطرنج بكل ما فيها .

لقد بعث من الموت فجأةً كل ماضي وليد ، وترك آثاره على وجه هانيا الواعي : سخرية قدرها .

ولقد خيّل لهانيا انها وجدت في العينين اللتين ترمزان الى مفاجأة وليد مفتاح السر لهذا الماضي البعيد ، والذي كان من حين الى حين يعود الى الظهور في حركاته وكلماته وصمته ؛ وهي قد عرفت كيف تكشف في قسمات طفل اضطرابَ وجه وليد ، هذا الطفل القادم من بعيد ، وبعيد جداً ، حيث عادت ذكريات وليد وهانيا من الماضي لتدفع بحاضرها بعيدا .

لقد جعل طفل الماضي تتابع الفصول يتلاشى ، ويستسلم للفراغ ؛ واما دفؤها فقد توارى صامتاً عند قدمي الطفل ، الذي غدا من جديد إلهاً للاقدار .

(الرسم على الصفحة المقابلة لكاتبة القصة)